مجلة العلوم الانسانية والاجتماعية	العدد: 08 الشهر12 السنة:2021م
ص:79 – ص99 د. سليم مزهود	النمو اللغوي المبكر للطفل من الولادة حتى الخامسة

النمو اللغوي المبكر للطفل من الولادة حتى سنّ الخامسة

A child's early language development from birth to five years old

د. سليم مزهود 1 *

1 المركز الجامعي عبد الحفيظ بوالصوف، ميلة (الجزائر)،

s.mezhoud@centre-univ-mila.dz

تاريخ الاستلام: 2021/01/17 تاريخ القبول: 2021/09/26 تاريخ النشر: 2021/12/28

ملخص:

يهدف هذا المقال إلى شرح تدرّج النمو اللغوي المبكر لدى الطفل من الولادة حتى سنّ الخامسة، على أساس أنّ تطوير اللغة هو العملية التي يفهم الأطفالُ من خلالها اللغةَ، ويتواصلون بها مع الوالدين والمجتمع القريب خلال مرحلة الطفولة المبكرة؛ إذ يطوّر الأطفال لغتهم بوتيرة سريعة جدًا منذ الولادة وحتى سن الخامسة، إن لم يوجد عائق عصبي بيولوجي أو نفسي أو مشاكل أخرى تقف حاجزا أمام هذا التطور، فبالرغم من فطرية تعلم اللغة لدى الطفل، لكن ينبغي مراعاة التأثيرات البيولوجية والسلوكية والبيئية في النمو اللغوي لدى الطفل بالمعايير بدلا من مقارنته بغيره من الأطفال، إذ إنّ التطور اللغوي لدى الفتيات في الحالة الطبيعية يكون أسرع من تطوره لدى الأطفال الذكور، فلنمو الدماغ ونضجه انعكاسًا واضحا على النمو اللغوي.

الكلمات المفتاح: نمو لغوي، الطفل، المجتمع، تأثير بيولوجي، تأثير نفسي.

Abstract :

This article aims to explain the language development based on the process by which children come to understand and communicate language with parents and the close society during early childhood from birth to the age of five. if there is no neurobiological or psychological obstacle or other problems that

stand in the way of this development. So this Article according to a descriptive approach from the hypothesis of the innate language learning, and the biological, behavioral and environmental influences on the language development of the child. The age and the pace at which a child reaches each milestone of language development vary greatly among children. Thus, language development in an individual child must be compared with norms rather than with other individual children. In general girls develop language at a faster rate than boys. More than any other aspect of development, language development reflects the growth and maturation of the brain.

Key words: Language Development, Child, Society, Biological influence, Psychological influence

Résumé :

Cet article vise à expliquer le développement du langage à partir du processus par lequel les enfants arrivent à comprendre et à communiquer le langage avec les parents et la société proche pendant la petite enfance de la naissance à l'âge de cinq ans. s'il n'y a pas d'obstacle neurobiologique ou psychologique ou d'autres problèmes qui font obstacle à ce développement. Donc cet article selon une approche descriptive à partir de l'hypothèse de l'apprentissage inné du langage, et des influences biologiques, comportementales et environnementales sur le développement langagier de l'enfant. L'âge et le rythme auxquels un enfant atteint chaque étape du développement du langage varient considérablement d'un enfant à l'autre. Ainsi, le développement du langage chez un enfant individuel doit être comparé aux normes plutôt qu'à d'autres enfants individuels. En général, les filles développent le langage à un rythme plus rapide que les garçons. Plus que tout autre aspect du développement, le développement du langage reflète la croissance et la maturation du cerveau.

Mots clés: Développement du langage, Enfant, société, Influence biologique, Influence psychologique.

1. مقدمة:

يبدأ تطوير اللغة قبل الولادة. مع اقتراب نهاية الحمل، يبدأ الجنين في سماع الأصوات والكلام القادم من خارج جسم الأم. يتكيف الأطفال بشكل حاد مع الصوت البشري ويفضلون ذلك على الأصوات الأخرى. ويفضلون على وجه الخصوص خاصية النغمة الأعلى للأصوات الأنثوية. كما أنهم مهتمون جدًا بوجه الإنسان، خاصةً عندما يتحدث الوجه. على الرغم من أن البكاء هو الوسيلة الأساسية للتواصل عند الطفل عند الولادة، تبدأ اللغة فورًا في التطور عن طريق التكرار والتقليد.

وغالبا ما تتطور اللغة الاستيعابية (القدرة على فهم اللغة) بشكل أسرع من اللغة التعبيرية (القدرة على التواصل). يتم التعرف على نمطين مختلفين من تطوير اللغة. في تطوير اللغة المرجعية، يتكلم الأطفال أولاً بكلمات مفردة ثم يجمعون الكلمات معًا، أولاً في جمل من كلمتين ثم في جمل من ثلاث كلمات. في تطوير اللغة التعبيرية، يتكلم الأطفال أولاً في الثرثرة الطويلة غير المفهومة التي تحاكي إيقاع وإيقاع كلام البالغين. يستخدم معظم الأطفال مزيجًا من هذه الأساليب.

إن اكتساب اللغة وتطورها عند الطفل له أهمية عند علماء النفس عامة وعلماء اللغة خاصة، لأن اللغة تعدّ مظهرا من المظاهر التي يتميز بها الإنسان عن غيره من الكائنات الأخرى، ومن ثم نجد أن العلماء صاغوا العديد من النظريات التي اهتمت بتفسير الكيفية التي يكتسب بها الطفل اللغةَ، إذ تسهم الأسباب النفسية والبيولوجية والسلوكية والبيئية في النمو اللغوي لدى الطفل منذ ولادته، بل قبل الولادة.

نبين في هذا المقال وفق منهج وصفي، أسباب النمو اللغوي المبكر، بحسب ما رأته مختلف النظريات التي عالجت النمو اللغوي ومشكلاته، وقد أكدت غالبية النظريات أنّ للأطفالِ استعدادًا بيولوجيا لاكتساب اللغة، لكن الحالة النفسية والبيئة الاجتماعية

والحوادث البيولوجية والطبيعية وعواملُ أخرى بإمكانها تسريع عملية النمو اللغوي، أو إعاقتها.

ينطلق المقال وفق منهج وصفي من فرضية فطرة تعلم اللغة، والتأثيرات البيولوجية والسلوكية والبيئية في النمو اللغوي لدى الطفل بالمعايير بدلا من مقارنته بغيره من الأطفال، إذ إنّ التطور اللغوي لدى الفتيات في الحالة الطبيعية يكون أسرع من تطوره لدى الأطفال الذكور، فلنمو الدماغ ونضجه انعكاسًا واضحا على النمو اللغوي.

2. مفهوم النمو اللغوي المبكر واكتساب اللغة:

تطوّر اللغة عند البشر هو عملية تبدأ في وقت مبكر من الحياة، إذ يبدأ الأطفال الرضع دون معرفة لغة، ولكن بحلول الشهر العاشر، يصير بإمكانهم التمييز بين أصوات الكلام والانخراط في المناغاة، فقد أظهرت بعض الأبحاث أنّ التعلم المبكر يبدأ في الرحم عندما يبدأ الجنين في التعرّف على الأصوات وأنماط الكلام لصوت أمّه، وتمييزها عن الأصوات الأخرى بعد الولادة (Graven, MD, & Browne, 2008, p. 187)

وغالبا ما يطور الأطفال قدراتهم اللغوية الاستيعابية قبل أنْ تتطور لغتهم اللفظية أو التعبيرية (Guess, 1969, p. 55) واللغة المستقبلة هي المعالجة الداخلية للغة من أجل فهمها، إذ تبدأ اللغة التعبيرية في التطور ببطء مع استمرار زيادة اللغة المستقبلة، أي مع استقبال المزيد من الكلمات.

وتعتبر اللغة التعبيرية لغة منتجة، تبدأ بمرحلة من التواصل قبل اللفظي حيث يستخدم الأطفال الإيماءات والألفاظ لجعل نواياهم معروفة للآخرين وفقًا لمبدأ عام للتطور، ثم تأخذ الأشكال الجديدة الوظائف القديمة، بحيث يتعلم الأطفال الكلمات للتعبير عن نفس الوظائف التواصلية التي سبق لهم التعبير عنها بوسائل يضرب بها المثل (Kennison, 2013, p. 5)

يُعتقد أن تطور اللغة يتم من خلال عمليات التعلم العادية التي يكتسب فيها الأطفال أشكال الكلمات ومعانيها من المدخلات اللغوية، وغالبًا ما يبدأ الأطفال في إعادة إنتاج الكلمات التي يتعرضون لها بشكل متكرر، ولكلّ نظرية رأيها في النمو اللغوي لدى الطفل واكتسابه اللغة.

1.2 نمو اللغة واكتسابها في رأي النظرية السلوكية:

رأت النظرية السلوكية التي اقترحها بورهوس فريدريك Burrhus Frederic Skinner (1904-1990م) أنّ اللغة يتم تعلمها من خلال التكييف الفعال، أي عن طريق تقليد المحفزات وتعزيز الاستجابات الصحيحة، لكن هذا المنظور لم يتم قبوله سابقا على نطاق واسع، ومع ذلك فإن بعض الدراسات الجديدة تستخدم هذه النظرية الآن لعلاج الأفراد المصابين باضطرابات طيف التوحد، بالإضافة إلى ذلك، تنمو نظرية الإطار العلائقي من النظرية السلوكية، وهو أمر مهم لعلاج القبول والالتزام وفق تفسيرات النظرية التجريبية اليوم للنماذج السلوكية (Roediger, 2004, p. 5) .

وتعدّ اللغة لدى السلوكية سلوكًا شأنه شأن أيّ سلوك آخر يمكن تعلمه، وهي عبارة عن مهارة ينمو وجودها لدى الفرد عن طريق المحاولة والخطأ، ويتمّ تدعيمها عن طريق المكافأة، وتنطفئ إذا لم تقدم المكافأة. وتذهب السلوكية إلى أن اللغة عبارة عن استجابة يصدرها الكائن الحي بفعل مشيرات، وأن الاستجابات اللفظية مثل بقية الاستجابات. ويتضح ذلك جليا في رأي سكينر إذ يميز بين ثلاث طرائق يتم بها تشجيع تكرار استجابات الكلام وهي (سليمان، 2003، صفحة 53):

– الأولى: قد يستخدم الطفل فيها استجابات ترددية حيث يحاكي صوتا يقوم به آخرون يظهرون التأكيد فورا، ولكن تمام هذه الأصوات يحتاج إلى حضور شيء ترتبط به .

– الثانية: نوع من الطلب أو استجابة تبدأ بوصفها صوتا عشوائيا وتنتهي بارتباط هذا الصوت بمعنى لدى الآخرين، علما بأن الاستجابة الترددية تتبعها غالبا تعبيرات طلب حيث

يلجأ أحد الوالدين بعد ان يستمع الطفل وهو يردد (ما– ما) أو (با– با) إلى تجميع استخدام هذا التعبير لتكوين كلمة، وتشجيع الطفل على تكرار التلفظ بهذه الكلمة مرتبطا بأحد الأشياء.

– الثالثة: تظهر الاستجابة المتقنة، وفيها يتم القيام بإحدى الاستجابات اللفظية عن طريق المحاكاة، وعندما يكافئ الطفل بالتأكيد فإنه يرجح أن تظهر الاستجابة ثانية.

كما يرى **سكينر** أيضا أن اكتساب الطفل للغة دائما يكون محكوما بمتغيرين رئيسين هما: الضبط البيئي الخارجي، مثل: المثيرات البيئية، والضبط الداخلي مثل: حاجات الطفل، ويؤدي التعزيز دوره في اكتساب الطفل للغة من خلال تعزيز السلوك اللفظي فالطفل في البداية تصدر منه مجموعة من الأصوات منها ما يكُون كلمة، ومنها ما يكَوّن كلمة، لكنه حين يجد استحسانا في حالة الأصوات التي تكُون كلمة، فإنه يكون قد تم تعزيز هذا الجانب فيتم الاكتساب، ومنه تأخذ عملية تعميم المثير والاستجابة مكانها وأهميتها بالنسبة للسلوك اللفظي لدى الكبير. والمثال: أن الطفل الذي يصدر صوت (با–با) في حضور أبيه، فإن هذا السلوك (الصوت) يسعد الأب ويجعله يبتسم في وجه ابنه، ويدفع لاحتضانه وتقبيله وهنا يكون الطفل قد حظي بتعزيز أبيه الذي ترك أثرا ايجابيا لديه، ومنه نجد الطفل في المواقف اللاحقة إذا رأى أباه يقترب منه، ويقوم بإعادة الصوت (با – با) ليحظى بسلوك أبيه الذي يبتسم بالحنو والعطف والتعزيز، وسوف يقوم الطفل بتكرار نطق هذا الصوت كلما لقي تعزيزا، ويستخدم الصوت (با–با) ليشير إلى أبيه، فيحدث ارتباط بين المثيرات والاستجابات، فيكون الاكتساب اللغوي عند الطفل، وتنمو معه لغته وتتطور. وقد أشار ليونارد بلومفيلد Leonard Bloomfield (1887-1949م) إلى أن السلوكيين يرفضون ما ذهب اليه أصحاب الاتجاه العقلي من أن اللغة تكتسب ويفهم معناها من خلال ما يحدث في عقل المتعلم من أفكار أو صور ذهنية، ويرون أن البيئة لها دور مؤثر مع التعزيز في اكتساب الفرد لمعنى الشيء فهم لا يفصلون المعنى المكتسب عن الحدث المصاحب

لاكتساب اللفظ أو المدلول، لأن معنى الصيغة اللغوية يجب أن يحلل لدى المستمع في ضوء عناصر الموقف الذي يتكلم فيه المتحدث، وهذه العناصر هي (سليمان، 2003، صفحة 54):

-مثيرا ت المتكلم: وتتمثل في الأحداث العملية السابقة للكلام.

- الكلام: هو استجابة وسيطة للمتحدث، وتعد بدورها مثيرات للمستمع.

- استجابة المستمع في الموقف الاتصالي، وأن اكتساب المعنى إنما يقوم على العلاقة الارتباطية بين هذه العناصر الثلاثة، حيث لا تتم بمعزل عن العناصر العيانية التي تمثل الواقع المحيط.

لقد قام بلومفيلد بتحليل دور السلوك في عملية تعلم الفرد للغة، فمثل لذلك بحالة طفل يرى تفاحة، ويشعر برغبة في التقاطها وأكلها (مثير عَيَان)، فإذا كان بإمكانه الحصول عليها فإنه سوف يذهب بنفسه ويحصل عليها (استجابة عملية)، لكن لا يحدث اكتساب للغة لعدم وجود الكلام في هذا الموقف كاستجابة.

أما إذا كان لا يمكن الحصول عليها فإنه سوف يلجأ إلى اللغة ليطلب مساعدة الغير (مثير لغوي)، فيصدر السامع استجابته (مساعدة الطفل) تنفيذ الطلب الطفل أو قد تدور حوارات لغوية أخرى إلى أن يتم التقاط التفاحة (استجابة عملية)، ومن هنا يحدث اكتساب مفردات لغوية ومعان جديدة، وهو ما يمكن تمثيله كالآتي :

- مثير علمي ـــــــ استجابة لغوية (استجابة وسيط)

- مثير لغوي (مثير وسيط) ـــــــــ استجابة عملية أو لغوية .

مما تقدم نلاحظ أن السلوكية تفسر السلوك اللغوي تفسيرا آليا اعتمادا على ثنائية المثير والاستجابة، وأنه يمكن التنبؤ بالكلام انطلاقا من الموقف الذي يحدث فيه مستقلا عن كل العوامل الداخلية لدى الطفل.وأما عن معنى المفردات فيرى السلوكيون أنّ اكتساب المعنى في ضوء التعزيز والاقتران بين كلمة ومحسوس عيني، أو بين كلمة ومشاعر تثيرها، يقف عاجزا

أمام تفسير اكتساب التراكيب اللغوية التي تتضمن أكثر من كلمة منفردة، مع العلم أن معنى الجملة أكبر من مجموع معاني الكلمات.

وقد وجهت لتفسير السلوكية انتقادات من علماء النفس الذين ذهبوا إلى أنّ الاستجابات اللفظية تأخذ معنى معينا يوضحه مدى استخدام هذه الألفاظ، فالملاحظ أن استخدامها يعد أوسع بكثير مما هو مقيد بالارتباط الشرطي، إضافة إلى أن هناك كلمات لا تشير إلى مسميات أو أشياء يرجع إليها، فمثلا من الصعب تفسير تعلم حرف التعريف (ال) في ضوء مصطلحات سكينر: (اقتران اللفظ بالمثير، الشيء الدال عليه) أو بعض علامات الاستفهام .كما أن الطفل يكتسب عددا هائلا من المفردات في فترة قصيرة نبيا، وهذا ما لا تستطيع نظرية سكينر أنْ تزوده بتفسير كامل له (سليمان، 2003، صفحة 58)

2.2 نمو اللغة واكتسابها في رأي النظرية الفطرية :

يرجع أصحاب النظرية الفطرية في تفسيرهم لاكتساب اللغة إلى العديد من الافتراضات النظرية والمسلمات، والافتراض الأساس للنظرية يفيد أن اكتساب الفرد للغة يتم فطريا، وجميع الأفراد يولدون ولديهم أداة تهيئهم لاكتساب اللغة، وإدراكها بطريقة منظمة.

ويرى أصحاب النظرية الفطرية أن هناك عوامل كثيرة تؤثر في استخدام قدرات الفرد في اللغة، لذلك فإن الأداء اللغوي والكلام الفعلي الذي تنتجه لا يعكس بالضرورة كفاءة الفرد في اللغة (سليمان، 2003، صفحة 63)

إن النظرية الفطرية التي اقترحها نعوم تشومسكي Chomsky Noam (ولد1928) ترى بأن اللغة هي إنجاز بشري فريد، ويمكن أن تُعزى إما إلى ملايين السنين من التطور، أو إلى مبادئ التنظيم العصبي التي قد تكون أكثر عمقًا في القانون الفيزيائي (Chomsky, 1965, p. 25).

يقول تشومسكي بأن جميع الأطفال لديهم ما يسمى: جهاز اكتساب اللغة الفطري، الذي يوفر للأطفال القدرة على فهم المعرفة وبناء جمل جديدة بأقل قدر من المدخلات الخارجية والخبرة قليلة.

يستند قول تشومسكي إلى وجهة النظر القائلة بأن ما يسمعه الأطفال غير كافٍ لشرح كيفية تعلمهم اللغة، فالمدخلات اللغوية من البيئة محدودة ومليئة بالأخطاء، ومن ثمَّ يستحيل أن يكتفي الأطفال في التعلم من بيئتهم فقط(Davies, 2012, p. 8) .

ولعل من أبرز نظريات الاتجاه الفطري نظرية النحو التوليدي التحويلي لتشومسكي، إذ يرى أن كل طفل يمتلك قدرة لغوية فطرية تمكنه من اكتساب اللغة، لذلك فسّر اكتساب اللغة على أساس وجود نماذج أولية للصياغة اللغوية لدى الأطفال، أي إنّ الأطفال في رأيه يولدون ولديهم نماذج للتركيب اللغوي تمكنهم من تحديد قواعد التركيب اللغوي في أي لغة من اللغات، إذ إن هناك كليات من التراكيب اللغوية تشترك فيها جميع اللغات، كتراكيب الجمل من الأسماء والأفعال، والصفات والحروف (وافي، د.ت، صفحة 200).

ويرى تشومسكي أن هذه العموميات هي التي تشكل منها النماذج الأولية المشار إليها (اسماعيل، 1989، صفحة 108)

وهي أولية بمعنى أن الطفل لا يتعلمها، بل تمثل لديه قدرة أولية فطرية على تحليل الجمل التي يسمعها ثم تكوين جمل لم يسمعها مطلقا من قبل، وقد يفعل الطفل ذلك بشكل صحيح تماما من البداية، أو بشكل يكون على الأقل مفهوما ومقبولا من ناحية الآخرين (زكريا، 1986، الصفحات 7-8)

فالطفل يتعلم التراكيب اللغوية عن طريق تقدير فرضيات معينة مبنية على النماذج اللغوية التي يسمعها، ثم يضع هذه الفرضيات موضع الاختبار في الاستعمال اللغوي ويقوم بتعديلها–عندما يتضح له الخطأ فيها– تعديلا يؤدي إلى تقريبها تدريجيا من تراكيب الكبار إلى أن تصبح تراكيبه مطابقة لتراكيبهم، أي إن الطفل يستخلص قاعدة لغوية معينة من

النماذج التي يسمعها ثم يطبق هذا القاعدة وبعد ذلك يعدلها إلى أن تطابق القاعدة التي يستعملها الكبار، فمثلا: الطفل العربي يستخلص قاعدة التأنيث في العربية من نماذج مثل: صغير – صغيرة، طويل – طويلة...، فيطبقها على أحمر فيقول حميرة، ثم يكتشف خطأ هذا التطبيق في المثال في فترة لاحقة فيعدل القاعدة بحيث تنطبق على مجموعة من الأسماء والصفات وينشئ أخرى (حسان، 2000، الصفحات 39-41).

وما قيل عن قواعد تركيب الكلمة ينطبق على قواعد تركيب الجملة، وبالرغم من أن الطفل لا يعرف المصطلحات: "فعل"، "اسم"، "حرف نفي"، "واو الجماعة"... فإنه يستطيع تمييز الاسم من الفعل ومن الصفة، والمفرد من الجمع، ويستطيع تجريد السوابق واللواحق في الكلمة، واستخلاص القواعد الصرفية والقواعد النحوية، ولذلك فهو يستعمل أداة التعريف مع الأسماء والصفات، ولكنه لا يستعملها مع الأسماء، فلا يقول: كتابني، وإنما يقول: كتابي.

إن ما جاء به تشومسكي يتوافق مع أهداف ما نسعى إلى تأكيده في هذا البحث، وهو أن للطفل قدرةً هائلة تمكنه من اكتساب اللغة، فالإبداعية عند تشومسكي المتمثلة في تكوين جمل لم يسبق للطفل أنْ سمعها من قبل أساسها السماع الذي من خلاله اكتسب النموذج أو المثال الذي صار قالبا ذهنيا نفسيا يقيس عليه جميع التراكيب التي ينشئها ولعل هذا ما يفسر لنا سر السليقة عند العربي الذي كان في زمانه "يكتسب لغته الفصحى من خلال الممارسة والاستعمال دون أن يدرك ما لها من نظام نحوي أو صرفي"، فقد روي عن الأصمعي، أن جارية قالت: يا عم، أدرك فاها، غلبني فوها، لا طاقة لي بفيها فأهنتها، وقلت: يا جارية، ما أفصحك!" (حسان، 2006، صفحة 214)

ويرجح أن تكون هذه الجارية صبية صغيرة دون السادسة من عمرها، لأن الأصمعي أثنى عليها بالفصاحة لصغر سنها، وامتلاكها ذلك النموذج الذي ساعدها في توظيف لفظة

(فو) التي وردت في عباراتها ثلاث مرات توظيفا صحيحا يتناسب مع حالات الإعراب الثلاثة للأسماء الستة في النمو.

3.2 نمو اللغة واكتسابها في رأي النظرية المعرفية :

إن ظهور النظرية المعرفية كان نتيجة جهود مكثفة حول الأثر الذي تتركه العمليات العقلية في التعلم، وتؤكد هذه النظريات على دور العمليات العقلية الداخلية ودور السلوك الخارجي، بحيث تهدف إلى تفسير ثلاثة جوانب للتعلم:

- كيف تؤسس المعرفة؟

- كيف تصبح المعرفة تلقائية؟

- كيف تمتزج المعرفة الجديدة، وتدخل في نظام التعلم المعرفي؟

إذ تقوم هذه النظرية على أساس التفريق بين الأداء والكفاءة وهي لا توافق النظرية السلوكية في أنّ اللغة تكتسب عن طريق التقليد والتدعيم لكلمات وجمل معينة ينطق بها الطفل في مواقف معينة (اسماعيل، 1989، صفحة 109)

إن اكتساب اللغة في رأي جان بياجه Jean Piaget (1896-1980) ليس عملية إشراكية وتدعيم، بقدر ما هو وظيفة إبداعية وكفاءة في الأداء لتحقيق وظيفة، ويفرق بياجيه بين الأداء والكفاءة، إذ بالرغم من أنّ الطفل يكتسب التسمية المبكرة للأشياء عن طريق المحاكاة، ويقوم بعملية الأداء في صورة تراكيب لغوية، إلا أن الكفاءة لا تكتسب إلا بناءً على تنظيمات داخلية تبدأ أولية ثم يعاد تنظيمها وفق تفاعل الطفل مع البيئة الخارجية (زكريا، 1993، صفحة 83)

ويقصد بياجيه بالتنظيمات الأولية وجود استعداد لدى الطفل للتعامل مع الرموز اللغوية التي تعبر عن مفاهيم تنشأ من خلال تفاعل الطفل مع البيئة منذ المرحلة الأولى، وهي المرحلة الحسية الحركية، وعلى الرغم مما ذهب اليه بياجيه حين تكلم عن الكفاءة والأداء، فإنه لم

يسقط أهمية السماع في تحصيل اللغة، فالطفل يحتاج إلى بيئة لغوية مناسبة للمحاكاة التي لا تتم إلا عن طريق الحواس، وأهمها حاسة السمع.

إن هذه النظرية تهتم بالعوامل الداخلية المنظمة مع التركيز على العمليات المعرفية العقلية في اكتساب اللغة وتعلمها، إذ يتعلم الطفل التراكيب اللغوية التي يسمعها، ومن ثمة وضع هذه الفرضيات موضع الاختبار في الاستعمال اللغوي وتعديلها عندما يتضح له نقاط ضعفها، وتعليلها لتصبح مطابقة لتراكيب لكبار .

أي إن الطفل يستخلص قاعدة لغوية معينة من النماذج التي يسمعها ثم يطبق هذه القاعدة، وبعد ذلك يعدّلها إلى أنْ تطابق القاعدة التي يستعملها الكبار، فالطفل العربي مثلا يستخلص قاعدة التأنيث في العربية من نماذج، مثل: (كبير، كبيرة)، (طويل طويلة)... فيطبقها على (أحمر)، فيقول: (أحمرة)، ثم يكشف خطأ هذا التطبيق في المثال في فترة لاحقة، فيعدّل القاعدة بحيث تنطبق على مجموعة من الأسماء والصفات (نوابسيه و القطاونة، د.ت، صفحة 41)

لم تقتصر الدراسات حول كيفية تعلم الطفل اللغة فقد أجريت أبحاث من قبل جميع أصحاب النظريات المعرفية، حول ملاحظة سلوك الأطفال أثناء تعلم اللغة الأولى قام روجر براون Roger Brown ودان سلوبن Dan Slobin، وهما مختصان في مجال علم اللغة نفسها، بملاحظة سلوك الأطفال أثناء تعلم اللغة الأولى، وكان همّهما البحث عن مدى صحة دليل تشومسكي في اعتماده البناء العقلي، ومدى اتساقه في السلوك اللفظي في لغة المتعلمين .

ولقد تابعا حالة طفلين؛ أحدهما عمره سنتان، والآخر عمره ثلاث سنوات وأبواهما حولهما، وذلك لعدة سنوات مستعملين أجهزة التسجيل ليلاحظا التعبيرات في المواقف المختلفة، وتوصلا في الأخير إلى أنّ بعض سلوك التعلّم عام لدى جميع الأطفال بغض النظر عن اللغة التي يتعلمونها، ومعنى ذلك أنّ الأطفال الذين يتعلمون لغتهم يستعملون أنواع البناء اللفظي نفسه، ويرتكبون الأخطاء نفسها، ولكن كلّ طفل بلغته، وتؤكد بيالستوك Bialystok؛

(وهي واحدة من أشهر من فعّلوا النظرية المعرفية في تدريس اللغة الثانية) أنّ تعامل العقل البشري مع اللغة يجري بالطريقة نفسها التي يتعامل بها مع بقية المعلومات (دوجلاس، د.ت، الصفحات 38-39)

وقد تبنى باحثون آخرون منظورًا تفاعليًا ، يتكون من نظريات التفاعل الاجتماعي لتطوير اللغة. في مثل هذه الأساليب، يتعلم الأطفال اللغة في السياق التفاعلي والتواصلي ، ويتعلمون أشكال اللغة لتحركات التواصل الهادفة. تركز هذه النظريات بشكل أساسي على مواقف مقدمي الرعاية واهتمامهم بأطفالهم من أجل تعزيز العادات اللغوية المنتجة (Poll, 2011, p. 580)

3. آراء حول اكتساب اللغة في التراث العربي :

إن قراءتنا بعض نصوص تراثنا العربي الزاخر التي تطرقت إلى مسألة الاكتساب اللغوي أظهرت اهتمام بعض اللغويين وعلماء الكلام والفلاسفة العرب بها، وكان من عنايتهم باللغة أنْ أحاطوها بهالة من التقديس لارتباطها بالقرآن الكريم، وجعلتهم يخوضون في مسائلها وما تعلق بها بإسهاب، لأنه لا يعرف عظمة هذه اللغة إلا من اطّلع عليها وتعلمها وغاص في أسرارها وتذوق حلاوتها، وسنتطرق لبعض الآراء والأفكار المتفرقة لكوكبة من العلماء العرب الذين اهتموا بقضية تحصيل اللغة وامتلاكها.

1.3 رأي ابن فارس (941–1004م) :

يرى أحمد بن فارس بأنّه لم يعد هناك أدنى ريب في أنّ اللغة تكتسب اكتسابا فهي لا تولد مع الإنسان، وإنما الذين يولد معه الاستعداد لتعلمها فهي: "تؤخذ اعتيادا ،كالصبي العربي يسمع أبويه وغيرهما، فهو يأخذ اللغة عنهم على مرّ الأوقات، وتؤخذ تلقنا من ملقن" (ابن فارس، د.ت، صفحة 30)، ففي هذا النص يرشدنا ابن فارس إلى طريقتين لتحصيل اللغة واكتسابها، وهما على النحو الآتي:

1.1.3 السماع العفوي :

نعني به عملية الاكتساب المباشر بموجب المنشأ والمعاودة دوما، بالتقنين أو التعليم المقصود بوعي وإحساس، فالمصدر الأول لاكتساب اللغة هو البيئة التي يعيش فيها الفرد؛ لأنّ الطفل يولد دون أيّ معرفة باللغة، ولكن بفضل استعداده الفطري يبدأ بشكل متدرّج في تحصيلها، ومن هنا يأتي دور الوسط الاجتماعي الذي ينمو فيه، فمنذ أيامه الأولى يبدأ بسماع الكلام من أبويه وأفراد عائلته والمحيطين به، مِنْ جيرانه وأبناء مجتمعه، فلا يمكن أن تنمو حصيلة الفرد اللغوية إلا إذا كان متصلا بغيره من الناس؛ لأن اللغة ظاهرة اجتماعية تنشط وتقوى وفق نشاط المجتمع، فهي ليست غريزية؛ بل ظاهرة إنسانية يأخذها الفرد من ولادته بالسماع والمحاكاة.

2.1.3 التلقين :

يعد التلقين المنهج الثاني الذي تكلم عنه ابن فارس في اكتساب اللغة بقوله: "تؤخذ تلقنا من ملقن" (ابن فارس، د.ت، صفحة 30)، ويظهر أنّ الغرض منه التعليم وصقل الموهبة، فهو اكتساب طارئ على العربي، ولم يلجأ إليه إلا عندما فسدت لغة العرب بمخالطتهم الأعاجم، "وسبب فسادها أنّ الناشئ من الجيل صار يسمع في العبارة عن المقاصد كيفيات أخرى غير الكيفيات التي كانت للعرب، فيعبر بها عن مقصوده لكثرة المخالطين للعرب من غيرهم، ويسمع كيفيات العرب أيضا، فاختلط عليه الأمر، وأخذ من هذه وتلك، فاستحدث مَلَكَةً وكانت ناقصة عن الأولى، وهذا معنى فساد اللسان العربي" (ابن خلدون، 2004، الصفحات 630-631).

إلا أنَّ التلقين بالمشافهة يعتبر منهجا متبعا عند العرب، فقد كان يتمّ تناقل أشعارهم وكلامهم، وما كان من أيامهم وأسمارهم شفاها بالحفظ والرواية من جيل إلى جيل، ثم نزل الوحي الأمين على محمد صلى الله عليه وسلم بالقرآن الكريم شِفاها، وتلقّاه عليه الصلاة والسلام سَماعا وحِفظا، وكذلك رتّله على أصحابه من حوله، فما كان عليهم إلا أن تلقّوه بالسماع والحفظ في الصدور، وما زال القرآن يُتلى كما كان يَتلوه رسولُ الله صلى الله عليه

وسلم، للحفاظ على طبيعة الصوت واللفظ بترتيله وتجويده اتّباعا لسنته، وتعبّدا لله تعالى وامتثالا لأمره سبحانه إذ قال: "وَرَتِّلِ القُرْآنَ تَرْتِيلًا" (المزمّل. آية:4)

ولا شك أن في الأمة متعبدين بفهم معاني القرآن وإقامة حدوده، متعبدين بتصحيح ألفاظه، وإقامة حروفه على الصفة المتلقّاة من أئمة القراءة المتصلة بالحضرة النبوية الأفصحية العربية، لا يجوز مخالفتها ولا العدول عنها إلى غيرها" (الجزري، د.ت، صفحة 210)

2.3 رأي ابن خلدون (1332– 1406م) :

تناول ابن خلدون قضية اكتساب اللغة من منطلق ثابت مفاده أنّ ملكة طبيعية يكتسبها الإنسان، إذ يرى: "أنّ اللغات لما كانت مَلَكَات، كان تعلّمها ممكنا شأن سائر الملَكَات (ابن خلدون، 2004، صفحة 635)

فاللغة عبارة عن ميزة أو صفة إنسانية يكتسبها الإنسان بشكل متدرج غير مقصود، فتبدو هذه المقدرة وكأنها طبيعة وفطرة، "لأن الملكات إذا استقرت ورسخت في مجالها ظهرت كأنها طبيعة وجِبِلّة لذلك المحل" (ابن خلدون، 2004، صفحة 638)، فهو عندما يؤكد على أن الملكة اللسانية مكتسبة يميز بين نوعين من عمليات الاكتساب اللغوي:

- الاكتساب من خلال الترعرع في البيئة وسماع لغتها .
- الاكتساب والتعلم بواسطة الحفظ والمران .

1.2.3 اكتساب اللغة من خلال الترعرع في البيئة:

يعدّ مبدأ السماع من المبادئ التي أقرها ابن خلدون، ونبّه على أهميته في حصول الملكة اللغوية اللّسانية –في نظره– هو السمّع، وعندما ينشا الطفل في بيئة ما تتلقى أذنه التراكيب والصور اللغوية والكيفيات الكلامية فيقوم بالتعبير عن مقاصده بواسطة هذه الكيفيات، ويستمع إليها مرة أخرى فيخزنها ليعبر بها في مقامات يحتاجها، يقول ابن خلدون: "فالمتكلم من العرب حين كانت ملكة اللغة العربية موجودة فيهم، يسمع كلام

أهل جيله وأساليبهم في مخاطباتهم وكيفية تعبيرهم عن مقاصدهم، كما يسمع الصبيّ استعمال المفردات في معانيها، فيلقّنها أولا، ثم يسمع التراكيب بعدها فليقنها كذلك. ثم لا يزال سماعهم يتجدّد في كلّ لحظة ومن كلّ متكلّم واستعماله يتكرر، إلى أن يصيرَ ذلك مَلَكة وَصِفَة راسخة" (ابن خلدون، 2004، صفحة 630)، ولو أننا هيأنا لأطفالنا مناخا عربيا فصيحا سَنة واحدة أو أقل لرأيتهم لا يتكلمون إلا بالفصحى، في مخرج الحروف والصيغ الصرفية والتركيب النحوي بلاغة وبيانا وأداء (قباوة، 1999، صفحة 24).

إنّ الانغماس الكلي في وسط لغوي عفوي يعين الطفل على فتق لسانه، لأن اللغة تُكتسب من خلال تعرّض متواصل للكلام الذي يسمعه الطفل من حوله، فيحاول بقدراته الذاتية إتقانه، إلى أن يُصبح مَلَكَة راسخة فيه، فالملكات لا تحصل إلا بتكرار الأفعال؛ لأن الفعل يقع أولا، وتعود منه للذات صفة ثم يتكرر فتكون حالاً، ومعنى الحال أنها صفة غير راسخة، ثم يزيد التكرار فتكون مَلَكَة أي صِفة راسخة؛ وهكذا يوضّح ابن خلدون على أنّ خروج الأشياء من القوة إلى الفعل لا يكون دفعة واحدة، فلا بد لها من زمان وتكرار مرة بعد أخرى، أي لا بد لها من ترويض ومعاودة .

2.2.3 اكتساب اللغة بواسطة الحفظ والمران:

ربط ابن خلدون بين اكتساب اللغة وتعلم اللغة، وأوجد السبيل لذلك بإيجاد الأجواء المناسبة لعملية تعلّم اللغة، وذكر أنّ أسلم طريقة تربوية هي إحاطة المتعلم بالنتاج العربي الفصيح، والتعامل معه حفظا وممارسة، وإنْ فقد الجو الفطري المتحدث باللغة السليمة فثمة طريق آخر يعتمد السماع؛ وهو حفظ النصوص الجيدة شعرا ونثرا، وعلى رأسها القرآن الكريم، ليكون المتعلّم قادرا على محاكاة هذه النصوص، يقول ابن خلدون: "ووجه التعليم لمن يبتغي هذه الملكة ويروم تحصيلها أنْ يأخذَ نفسَه بحفظ كلامهم القديم الجاري على أساليبهم من القرآن والحديث وكلام السلف، ومخاطبات فُحُول العرب في أسجاعهم وأشعارهم، وكلمات المولّدين أيضا في سائر فنونهم، حتى يتنزّل لكثرة حفظه لكلامهم من

المنظوم والمنثور منزلةَ مَنْ نشأ بينهم ولُقّن العبارة عن المقاصد منهم، ثم يتصرّف بعد ذاك في التعبير عمّا في ضميره على حسب عباراتهم وتأليف كلماتهم، وما وعاه وحفظه من أساليبهم وترتيب ألفاظهم، فتحصل له هذه الملكة بهذا الحفظ والاستعمال ويزداد بكثرتهما رسوخا وقوة" (ابن خلدون، 2004، صفحة 636)

فلا بد إذًا مِن وجود محيط لغوي مشابه اللغة المراد تعلمها، بحيث تنمو في ذهن المتعلم، فيكتسب الملكة اللسانية الشبيهة، من خلال حفظه لكلام متحدثي اللغة ذوي الملكة الأصيلة، وترديد كلامهم، واستعماله إلى أنْ يجري على اللسان بصورة طبيعية وحتى ترسخ الملكة أكثر، ويكون متعلم اللغة كأحد متحدثيها، فلا بد من كثرة الحفظ ومداومة الاستعمال، وهذه وسيلة التعلّم لدى الأوائل، فكان يعهد بالطفل إلى حلقات المساجد ليحفظ القرآن والحديث والشعر منذ الصغر، فيكون متحدثا فصيحا، ولا بد أن ننتبه إلى ما ذكره ابن خلدون عندما عدّ اللغة صناعية، فقال: "اعلم أن اللغات كلها ملكات شبيهة بالصناعة، إذ هي ملكات في اللسان للعبارة عن المعاني وجودتها وقصورها بحسب تمام الملكة أو نقصانها، وليس ذلك بالنظر إلى المفردات، وإنما هو بالنظر إلى التراكيب، فإذا حصلت الملكة التامة في تركيب الألفاظ المفردة للتعبير بها عن المعاني المقصودة ومراعاة التأليف الذي يطابق الكلام على مقتضى الحال بلغ المتكلم حينئذ الغاية من إفادة مقصوده للسامع، وهذا هو معنى البلاغة" (ابن خلدون، 2004، صفحة 636)

إنّ اكتساب اللغة عند ابن خلدون، كما هو واضح من كلامه هو اكتساب التراكيب الحاملة للمعاني، والدالة على المقاصد، وبعد ذلك هو حسن تطبيق هذا التركيب وتأليفه بالطريقة الفنية التي تجعله مطابقا للسياق الذي يقال فيه وملائما له، فالملكة اللسانية تعتمد على الجمل لا على المفردات من حيث تدرجها من الإفهام إلى الصحة إلى البلاغة.

ومجمل ما يقال عن آراء ابن خلدون المتقدمة في مسألة اللغة واكتسابها أنها اقتربت أو شابهت آراء الكثير من علماء اللغة المحدثين في الغرب، ورأينا أنْ نقارب بين آرائهم وبين

أساس ما اعتمد عليه تشومسكي في نظريته اللغوية، لوجود وشائج بينهما فيما يتعلق بالملكة اللغوية، فتشومسكي فرّق بين الكفاية اللغوية، التي هي المعرفة الضمنية غير الشعورية بقوانين اللغة التي تمكن الإنسان من إنتاج الجمل وفهمها، وبين الأداء اللغوي الفعلي، وهو الاستعمال الآني لهذه المعرفة في الكلام (زكريا، قضايا ألسنية تطبيقية، 1993، صفحة 61) ، وهذا لا يختلف عن التفريق الذي ذكره ابن خلدون بين الملكة اللّسانية، التي يقصد بها "قدرة اللسان على التحكم في اللغة والتصرف فيها" (عيد، د.ت، صفحة 5)، وبين صناعة العربية التي هي "معرفة قوانين هذه الملكة ومقاييسها خاصة" (ابن خلدون، 2004، صفحة 636).

ومهما يكن من أمر فإنّ اللغة شغلت بال الكثير من الباحثين على مرّ العصور من حيث اكتسابها وتعلمها، وعلاقتها بالتفكير، وإنّ اتّباع المنهج السوي والسليم في مختلف الأبحاث والدراسات يفضي بالضرورة للوصول إلى نتائج وحقائق مقبولة ومقنعة، مما يفسّر لنا بعض التقارب والمطابقة أحيانا بين الآراء، رغم البعد الزمني واختلاف الثقافة وتباين المعتقد .

4. الخاتمة:

من خلال ما سبق عرضه النظريات الاكتساب اللغوي ـ في حدود ما يخدم المقال ـ أرى أن مسألة اكتساب اللغة أكبر من أن تحتويها نظرية واحدة، رغم أنّ هناك اتفاقا حول أهمية هذه المرحلة العمرية من الميلاد إلى سن الخامسة؛ أي من بداية استعداد الطفل الفطري لاكتساب اللغة حتى إعداد البيئة الاجتماعية والثقافية المحيطة به، وذلك من خلال النماذج اللغوية المختلفة التي يتعامل معها الطفل، وكذلك الاهتمام بإعداد بيئة تعليمية غنية بالمواقف والخبرات الطبيعية والاجتماعية، كما أن الطفل ما قبل المدرسة بحاجة إلى نظرية شاملة تسلّم بوجود الاستعداد الفطري لدى الطفل مع وجود العوامل الأخرى المحيطة به، نحو العوامل البيولوجية، والبيئية، والعوامل الاجتماعية والثقافية، وعامل النضج للوصول، إلى أفضل الأساليب لاكتساب اللغة وتعلمها .

وفي الأخير نقترح ما يأتي:

– لمساعدة الطفل على النمو اللغوي المبكر بطريقة سليمة وآمنة، بدءًا من ميلاده، ينبغي على الوالدين الابتسامة في وجهه دوما، والحديث بأصوات هادئة وممتعة، وأصوات الطبيعة.

– ينبغي الاستماع باهتمام إلى كلام الطفل حين يبدأ بالنطق لأول مرة.

– حين يظهر وعي والطفل بالكلمات، ينبغي التكلم معه بشكل واضح، لأنّ إفساد الكلمة وإقلاب حروفها قد يعطّل عملية النمو السريع في هذه المرحلة.

– ينبغي عدم تشغيل الموسيقى الصاخبة، أو الأغاني والأناشيد التي لا تتوقف فيها الموسيقى الصاخبة، إذ لا تكادُ تُسمع كلمات الأغنية أو الأنشودة، فلا بد من قناة أطفال تعمل على التنويع بين الموسيقى والكلمات. وبطريقة سهلة وممتعة. مع تجنّب التكرار المبالغ فيه والمتتالي لمدة طويلة.

– ينبغي على الوالدين ومحيط الطفل، أن ينتبهوا إلى الحروف التي استطاع الطفل نطقها بشكل صحيح، لينطقوا أمامه كلمات أخرى تحوي ذلك الحرف.

الإحالات والمراجع:

1- Alan Davies .(2012) .The Encyclopedia of Applied Linguistics .Nativism.

2- D Guess .(1969) .A functional analysis of receptive language and productive speech: acquisition of the plural morpheme .Journal of Applied Behavior Analysis.64-55 ،(1) 2 ،

3- G. H Poll .(2011) .Theory in Language Intervention. Language, Speech, and Hearing Services in Schools .(المجلد 42) . Increasing the Odds: Applying Emergentist.

4- Noam Chomsky .(1965) .Aspects of the Theory of Syntax . MIT Press.

5- R Roediger .(2004) .What happened to Behaviorism .USA: American Psychological Society.

6- S. M Kennison .(2013) .Introduction to language development .Los Angeles: CA: Sage.

7- Stanley N. Graven ،MD و ،Joy V Browne .(2008) .Auditory development in the fetus and infant. Newborn and Infant Nursing Reviews .Journal of Social Sciences.193–187 ،8 ،

8- أبو الحسين أحمد ابن فارس. (د.ت). الصاحبي في فقه اللغة. القاهرة: المكتبة السلفية.

9- أبو الخير محمد بن محمد الجزري. (د.ت). النشر في القراءات العشر. بيروت: دار الكتب العلمية.

10- أديب عبد الله نوابسيه، و إيمان طه القطاونة. (د.ت). النمو اللغوي والمعرفي للطفل. الرياض: مكتبة لسان العرب.

11- براون دوجلاس. (د.ت). اكتساب اللغة وتعليمها. بيروت: دار الفكر العربي.

12- تمام حسان. (2000). اللغة بين المعيارية والوصفية. القاهرة: عالم الكتب.

13- تمام حسان. (2006). مقالات في اللغة والآداب (الإصدار 1). القاهرة: عالم الكتب.

14- عبد الحميد، سليمان. (2003). سيكولوجية اللغة والطفل. بيروت: دار الفكر العربي.

15- عبد الرحمان ابن خلدون. (2004). المقدمة. بيروت: دار الفكر.

16- علي عبد الواحد وافي. (د.ت). نشأة اللغة عند الإنسان والطفل. مصر: دار النهضة للطباعة والنشر.

17- فخر الدين قباوة. (1999). المهارات اللغوية وعروبة اللسان. دمشق: دار الفكر.

18- محمد عماد الدين اسماعيل. (1989). الأطفال مرآة المجتمع. الكويت: سلسلة عالم المعرفة المجلس الوطني للثقافة والفنون والأدب .

19- محمد عيد. (د.ت). الملكة اللسانية في نظر ابن خلدون. القاهرة: عالم الكتب.

20- ميشال زكريا. (1986). الألسنة التوليدية التحويلية وقواعد اللغة (الجملة البسيطة). بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع.

21- ميشال زكريا. (1993). قضايا ألسنية تطبيقية. بيروت: دار العلم للملايين.